مجلة دراسات في اللّغة العربية وآدابها، نصف سنويّة دوليّة محكّمة،
السنة الثامنة، العدد السادس والعشرون، خريف وشتاء ١٣٩٦هـ. ش/٢٠١٨م
صص ٩٩- ١٢٠

بلاغة الصمت في كتاب "الأيام"

روح الله نصيري*

الملخص

الصمت – من حيث هو بيان – يُعبِّر عن المعاني المكتومة في الضمير ويُفصح عن فكرة ما أو عاطفة ما. وبلاغة الصمت منوطة بقوة من يصمت وفهم مخاطبه ومقتضى الكلام أيضاً. وقد كتَبَ طه حسين سيرته الذاتية في كتابٍ سمّاه "الأيام". وبما أنَّه كان مكفوف البصر نجد تأثيراً هاماً لهذا الفقدان على انطواء طه حسين وصمته. فإنَّ الصمت بدلالاته العديدة، والمتناقضة أحيانًا، يحضر في نسيج حوادث كتاب "الأيام" بأشكال شتى. دلالات الصمت ومعانيه في تلك المواقف تساعدنا في التعرُّف إلى شخصية طه حسين أكثر فأكثر ونستنبط منها أفكاره ومشاعره الذاتية. ومن هذا المنطلق تناولت هذه المقالة من خلال المنهج الوصفي – التحليلي مواقف الصمت في "الأيام" لنستجلي دور الصمت في حمل المعاني وإيجاد التفاهم، لافتين الانتباه إلى، بلاغة الصمت.

توصَّلنا قي هذه المقالة إلى أنَّ صمت طه حسين لايأتي بالموقف المؤخر من الكلام في إكمال التعبير،، بل هو أصل المعنى بصفته المباشرة أو المتأولة، وكثيرًا ما كان علامة على ترفُّعِهِ عن الدنايا. وقد استخدم طه حسين لغة الجسد للتعبير عن آماله وهكذا تحلَّى بشيمة الصمت أحياناً حتى لا يفوه بالشكاية من آلامه. ويمكن التعرُّف إلى شخصية الإنسان على أساس صمته؛ إذ الإنسان مسؤول عن صمته كما هو مسؤولٌ عن كلامه.

كلمات مفتاحيّة: الأيام، الاتصال الصامت، دلالات الصمت، طه حسين.

---

* – أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة أصفهان. (roohallah62@yahoo.com)

تاريخ الوصول: ١٣٩٥/١٢/١١هـ.ش= ٢٠١٧/٠٣/٠١م تاريخ القبول: ١٣٩٦/٠٥/٢٢ هـ.ش= ٢٠١٧/٠٨/١٣م

التمهيد

ليس الكلام أداة وحيدة للتعبير عن المعاني وللتحدَّث، بل وفي بعض الأحيان الصمت هو الذي يتحدَّث ويُعبِّر عن المعاني ويسمع دلالاته العقلُ لا الأذن. الصمت – من حيث هو اللسان – يدلّ على العواطف المختلفة الكامنة في الضمير؛ كالمقت، أوالمقة، أوالإعجاب، أوالشوق، أوالغضب الخ وأيضًا الصمت يدلّ على فكرةٍ ما ويعبِّر عن مجموعة من المعاني، أحيانًا يكون علامة القبول وأحيانًا علامة الرفض.

«الصمت هو ضرب من أشكال اللغة. قد يلجأ المتحاور مع الآخر الي الصمت، ويمكن له أن يفهم وهو صامت، بل قد يكون الصمت أعمق دلالة من ثرثرة تغيّب المعني وتعطل الفهم، كما يمكن أن تحقق (القدرة في الكلام) (قدرة في الصمت) لذا نجد الملفوظ يمثل خطاباً يجمع بين التلفظ والصمت ويربط الموجود بالوجود»[1]. كما قال الحصناوي: «فإنَّ الصمت حالة من تجميع الرموز يتولى العقل ترتيبها وتجميعها ليتسنى تفسير العالم المحيط بالإنسان والتعبير عنه من خلال إخراج المعاني الداخلية الدفينة أو المختبئة إلى حيز الوجود»[2].

أهمية البحث وضرورته: قام طه حسين بإيصال المعانى وإبراز العواطف في حوادث "الأيام" بالصمت والكلام معًا وهذا هو الذي حَفَزَنا لدراسة الصمت ودلالاته في "الأيام". دراسة الصمت هي موضوع لافت للنظر وتستحق الانتباه والتركيز؛ لأنَّها تُبرِز دورَ الصمت في عملية الاتصال وأيضًا تتطرَّقُ إلى المعاني والدلالات التي يتضمنها الصمت.

منهج البحث: ومن هذا المنطلق تناولت هذه المقالة من خلال المنهج الوصفي – التحليلي مواقف صمت طه حسين في "الأيام" على حسب تواجدها من بداية الكتاب إلى ختامه على التوالي، نظرياً وتطبيقياً، حيث تناولت بالبحث والدراسة سكوت طه حسين في المواقف التالية: **سكوته احتفاظًا بسمعة الأستاذ، سكوته وأداء الفرائض، سكوته رفقاً بالأبوين، سكوته تجاه الإهانة، سكوته تجاه مرارة الوحدة، سكوته استحياءً، سكوته احتفاظًا بسمعة الأخوان، وسكوته تغافلًا واحتمالًا.** كلّ ذلك كان

[1]- محمد جاسم، توانسة، "**سافرة ناجي تبحث عن سرّ الصمت في الأدب المسرحي المعاصر**"، جريدة الزمان اللندنية، ص٢.

[2]- سامي الحصناوي، "**الصمت في المسرح**"، ص٤.

بهدف تأويل تلك المواقف والتعرُّف إلى شخصية طه حسين من خلال صمته. ومن هذا المنطلق وبعد قراءة هذا الكتاب نجد أنَّ طه حسين قام بالصمت المتأمل في مواقف عديدة. وبعد التدقيق في تلك المواقف وسياقاتها وقراءة ماقبلها ومابعدها نستنتج دلالات خاصة للصمت لكل واحد من تلك المواقف. دلالات تساعدنا في التعرِّف إلى شخصية طه حسين أكثر فأكثر.

سابقة البحث؛ هناك دراسات عديدة تنوعت بين المقالات والرسائل الجامعية تطرَّقت إلى موضوع الصمت. ونخصّ أهمَّها بالذكر؛ هناك مقالة موسومة بـ "التخاطبية الدلالية للصمت في ضوء علم اللغة"[١] لـ "ليلى صادقي"؛ طُبعت في العدد ٢٤ من مجلة "بحوث في العلوم الإنسانية"[٢]، التابعة لجامعة بوعلي سينا بهمذان (٢٠٠٨م): عالجت الباحثة مفهوم الصمت بوصفه سيميائية تعبيرية وتوصلت إلى أنَّ الصمت الروايي يشابه الصمت الاجتماعي في الدلالة والتعبير. وأيضا هناك مقالة أخرى معنونة بـ "خطاب بلا صوت؛ استقصاء عن لغة الجسد في الأشعار الموسومة بغزليات شمس"[٣] " لـ "مينا بهنام" وسائرين؛ مطبوعة في العدد ١١ مجلة "الفنون الأدبية"[٤] التابعة لجامعة أصفهان، (٢٠١٤م): قام الباحثون بتحليل دلالات الصمت وقد تبيَّنوا توظيف لغة الجسد في تلك الأشعار الغزلية. وتوصلوا إلى أنَّ السيميائيات البصرية قد عبَّرت عن ٤٦ معنى، وسيميائيات قرب الجسد أو بعده قد أفصحت عن ٢٨ معنى وسيميائيات التنغيم والنبر قد عبَّرت عن ١٦ معنى في الأشعار المدروسة. وهناك مقالة أخرى اعتلاها عنوان: "مدخل إلى الصمت في النص السردي"، لـ "محيي الدين حمدي؛ قد طبعت في العدد ٨ مجلة "كلية الآداب واللغات" التابعة لجامعة صفاقس بتونس، (٢٠١١م): وقد هدف الباحث من وراء المقالة إلى كشف جانب جديد من الرواية مجاله خارج اللغة. وتجلى أنَّ الصمت قول غائب يلفت النظر بغيابه. ومن الكتب المنشورة: كتاب بعنوان "الصمت في الأدب المسرحي المعاصر، اللامعقول أنموذجاً"؛ لسافرة ناجي، الصادر عن دار الينابيع في دمشق عام (٢٠١١م)؛ وقد تطرقت المؤلفة في كتابها إلى العناوين الآتية: أولاً: الصمت بوصفه

١- "گفتمان دلالی سکوت از دیدگاه زبانشناسی".

٢- مجله "پژوهش علوم انساني".

٣- "گفتار بی صدا، تأملی بر زبان بدن در غزليات شمس".

٤- مجله "فنون ادبی".

مفهوماً فلسفياً وجمالياً، ثانياً: الصمت تلقيه وتأويله، وثالثاً: الصمت جدلية علامية في نصوص اللامعقول. وهناك دراسة أخرى عنوانها: "الاتصال الصامت وعمقه التأثيري في الآخرين، في ضوء القرآن الكريم" لـ "عودة عبدالله"؛ المنشورة في العدد ١١٢ مجلة "المسلم المعاصر" في لبنان عام (٢٠٠٤م): استعرض المؤلف في هذه الدراسة بعض صور الاتصال الصامت مع بيان دورها في التأثير على الآخرين مستنيراً في ذلك بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية.

وجديرٌ بالذكر أن الدراسات السابقة، وإن عالجت موضوع الصمت نظرياً أو تطبيقياً ولكنَّنا لم نعثر على دراسة مستقلة تطرَّقت إلى موضوع «بلاغة الصمت في كتاب الأيام» وبنظرة متفحِّصة ندرك أنَّ كلّ تلك المحاولات السابقة تهيئ الأرضية النظرية اللازمة لدراسة موضوعنا هذا. ومن هنا جاء اهتمامنا بدراسة، بلاغة الصمت ودلالته وكان سبب اختيارنا لمواقف صمت طه حسين في "الأيام" للتعرُّف إلى شخصية طه من خلال اتصاله الصامت حتى يتبيّن للقارئ عيانًا أهمية الصمت ودوره في التعرُّف إلى شخصية الآخرين علاوة على كلامهم.

أسئلة البحث وفرضياته: ونحن بصدد الإجابة عن الأسئلة الآتية في هذه الدراسة: – ما هي مواقف الصمت في كتاب الأيام؟ وما هي دلالات الصمت في تلك المواقف؟ وما هو دور الصمت في التعرُّف إلى شخصية طه حسين؟ كإجابة أولية لتلك الأسئلة نفترض أنَّ طه حسين راغبٌ في استخدام الصمت لإيصال المعنى، لأنَّه كان محرومًا من نعمة البصر ولابدَّ من أثر هام لهذا الفقدان في انطوائه وصمته. وأيضا نفترض أنَّ للاتصالات الصامتة دلالات ومعانيَ مطابقة لسياق الحوادث ومقتضاها كالحبّ والبغض والرغبة والحزن والخوف والغضب والدهشة ولها تأثير عميق وموحي في التعرُّف إلى انفعالات طه حسين وخلجات نفسه وشخصيته.

ميزات الاتصال الصامت

تنقسم وسائل الاتصال والتفاهم بين المرسل والمرسل إليه إلى قسمين رئيسين: أولا: الاتصال الناطق ويتم عن طريق توظيف اللغة المنطوقة وثانياً: الاتصال الصامت وهو المتكون من كل الأنشطة الاتصالية غير النطق، كلغة الجسد ويغلب عليه طابع المشاعر والأحاسيس. لا ينحصر الاتصال في التعبير اللفظي أو

التحريري، فكثيراً ما تكون التفاهم والتواصل مصاحبة للوسائل الأخرى كالإيماءة وحركات الجسم، والرموز. والقول العربي المأثور كـ: «ربَّ لحظ أبلغ من لفظ» يؤكد على أنَّ التعبير ليس محدوداً في اللسان. «ففي الصمت الكثير من المعاني التي يمكن أن تُعدُّ أساساً في عملية التواصل والتفاهم بين الناس»[1].

إنَّ الإنسان يستخدم لغة جسده عن طريق الإيماءات، وتعبيرات الوجه، وحركات اليدين، وكيفية النظر، وحركة العينين، هيئة الجسم وأوضاعه، هزّات الكتفين، وغيرها من مظاهر لغة الجسد للتعبير عن مكنوناته. الحركة الجسدية تشكل لغة بحد ذاتها. وربما تكون، بلاغة الصمت أكثر دلالة عن، بلاغة الكلام. وبالتركيز على حركات جسد المرسِل يمكننا أن نستنبط ما يريد أن يقول. «فالمعنى المستخلص من فهم الصمت أكثر وقعًا في إيصال الدلالات إلى الآخر من الإسهاب في الشرح وبذل الجهد العضلي والصوتي لإيصال نفس ذلك المعنى»[2].

تجدر الإشارة إلى أنَّ لغة الجسد توظف غالباً ما عفوياً وتلقائياً وبما أنَّها تعبِّر غالباً عن المشاعر والعواطف، فلا يمكن تزييفها. ومن هنا يمكننا القول إنَّ صداقة لغة الجسد في التعبير عن المعانى، تفوق على اللغة المنطوقة. ومن هذا المنطلق نستطيع أن نوجز العلاقة بين الاتصال اللفظي والاتصال الصامت على النوعين الكليين؛ أولاً: الموافقة والملائمة بينهما. ومثال ذلك: حينما نقول لشخص أنا مسرورٌ من زيارتك ووجهنا يهشُّ بالبشاشة والابتهاج. وثانياً: التناقض والاختلاف بينهما، وعلى سبيل المثال؛ يقال لشخص: «أنا أحبُّك»، ولكن حركة العينين، وتعبيرات الوجه ونبر الصوت و تنغيمه تعبِّر عن الكره. وبما أنَّ لغة الجسد تدرك مباشرة وتكون استجاباتها أكثر فورية، فمن البديهي أنَّها تلعب دوراً أساسياً في عملية التواصل، فهي تُفهِم وتُوضِح المعاني ويُفصِح عنها.

وفي مجال دلالات الصمت علينا أن نسلِّطَ الضوء على النقطة الهامة الآتية: «ليس هناك دلالة ثابتة دوماً للسكوت، وإنَّما تختلف دلالة السكوت وتتعدد باختلاف الأفراد والمواقف والمجتمعات،، بل علينا أن نقبل الدلالات المتناقضة للغة الصمت كما هو الحال بالنسبة للغة الكلام»[3].

---

[1]- عودة عبدالله، "**الاتصال الصامت وعمقه التأثيري في الآخرين**"، مجلة المسلم المعاصر، ص١٠٧.

[2]- سامي محبس الحصناوي، "**مفهوم الصمت في العرض المسرحي**"، ص٤.

[3]-كمال خضر، عادل، "**التحليل النفسي للقول الشائع؛ السكوت علامة الرضا**"، نشرة الثقافة النفسية، ص٢.

مواقف الصمت ودلالاته في "الأيام"

ولاشك أنَّ الصمتَ في عمليبَة الاتصال له دلالات عديدة وقابلة للتأويل، فبالتركيز على مقتضى ومقام الاتصال الصامت يُمكن استنباط تلك الدلالات. ومن هذا المنطلق نستعرض فيما يلي مواقف صمت طه حسين في كتابه "الأيام" مع القيام بتفسير المعاني المتعلقة بتلك المواقف حتى يتم التعرُّف إلى شخصية طه حسين من خلال اتصاله الصامت. تجدر الإشارة هنا إلى أنَّ الصمت في "الأيام" ينقسم إلى القسمين الأساسيين وهما؛ الصمت الأخلاقي والصمت الاتصالي. فندرس نماذج الصمت بنوعيه في هذا الكتاب من بداية الكتاب إلى ختامه على التوالي ونستجلى دلالات الصمت الأخلاقي والصمت الاتصالي على هذا الترتيب.

١. سكوت طه حسين احتفاظًا بسمعة الأستاذ

في هذا الموقف صَمَتَ "طه" ولم يُبن عن الحقيقة احتفاظًا بسمعة أستاذه. ويصف ذلك الموقف بقوله: «**عاد من الكتّاب عصر ذلك اليوم مطمئنًا راضيًا، ولم يكد يدخل الدار حتى دعاه أبوه، بلقب الشيخ (من حفظ القرآن لُقِّبَ بالشيخ مهما تكن سنُّه) فأقبل عليه ومعه صديقان له. فتلقّاه أبوه مبتهجًا، وأجلسه في رفقٍ، وسأله أسئلة عادية، ثم طلب إليه أن يقرأ "سورة الشعراء" وما هي إلا أن وقع عليه هذا السؤال وقع الصاعقة، ففكر وتحفَّز واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ولكنَّه لم يذكر من سورة الشعراء إلّا أنَّها إحدى سور ثلاث، أولها طسم، فأخذ يردّد طسم مرةً ومرةً ومرةً، دون أن يستطيع الانتقال إلى ما بعدها. ... قال أبوه فاقرأ سورة "النمل". فذكر أنَّ أول سورة النمل كأول سورة الشعراء طس، وأخذ يردد هذا اللفظ. وفتح عليه أبوه، فلم يستطع أن يتقدَّم خطوة أخرى ... قال أبوه: فاقرأ سورة القصص، فذكر أنَّها الثالثة، وأخذ يردّد طسم، ولم يفتح عليه أبوه هذه المرة، ولكنَّه قال له في هدوء: قم؛ فقد كنت أحسب أنك حفظت القرآن فقام خجلًا يتصبِب عرقًا. وأخذ الرجلان يعتذران عنه بالخجل وصغر السنّ ولكنَّه لا يدري أيلوم نفسه لأنَّه نسي القرآن، أم يلوم سيدَنا لأنَّه أهمله، أم يلوم أباه لأنَّه امتحنه! ومهما يكن من شيء، فقد أمسى هذا اليوم شرَّ مساء ولم يظهر على مائدة العشاء، ولم يسأل عنه أبوه،.... وليس من شك في أنَّه حفظ القرآن بعد ذلك حفظاً جيداً في مدة قصيرة جداً. فهو يذكر أنه عاد من الكتاب ذات يوم مع سيدنا، وكان سيدنا في**

هذا اليوم حريصاً على أن يعود معه، حتى إذا وصلوا إلى الدار عطف عليها سيدنا فدفع الباب فاندفع له، وصاح صيحته المألوفة: "يا ستار". وكان الشيخ كعادته في المنظرة قد فرغ من صلاة العصر. فلما استقرَّ سيدنا في مجلسه قال للشيخ: «زعمتَ أنَّ ابنك قد نسي القرآن، ولمتَني في ذلك لوماً شديداً وأقسمتُ لك أنَّه لم ينس القرآن وإنما خجل، فكذبتَني وعبثتَ، بلحيتي هذه. وقد جئتُ اليوم لتمتحن ابنك أمامي، وأنا أقسم: لئن ظهر أنه لايحفظ القرآن لأحلقنَّ لحيتي هذه ولأصبحن معرة الفقهاء في هذا البلد. قال الشيخ: «هوِّن عليك! ومالك لا تقول: إنَّه نَسِيَ القرآنَ ثم أقرأته إياه مرة أخرى!». قال: أقسم بالله ثلاثاً ما نسيه ولا أقرأته، وإنما استمعت له القرآن، فتلا عليّ كالماء الجاري، لم يقف ولم يتردد». وكان صاحبنا يسمع هذا الحوار، وكان مقتنعاً أن أباه محق وأنَّ سيدنا كاذب ولكنَّه لم يقل شيئاً...»[1].

«عمليات الاتصال بين المعلم أو الأستاذ والتلاميذ أو الطلاب، غنية بالرموز غير اللفظية، كتقبّل الأفكار وفهمها من لدن الأستاذ أو الطالب والتشجيع والنقد والصمت. كما أنَّ القنوات غير اللفظية تعتبر مصدراً غنياً للرموز العاطفية التي تخبر بنوعية العلاقات بين الطلاب، أو بين الأستاذ والطالب»[2]. ولقد فُوجئَ الطفل الصغير (طه حسين) في هذا الموقف بطلب أبيه وبالفشل في هذا الامتحان لأنَّه كان قد نسي القرآن وكان هذا الفشل ناشئ عن إهمال استاذه في تعليم القرآن. وقد خجل طه حسين من أبيه وهكذا خجل أبوه من صديقيه الحاضرين في المنزل. ويصرّح طه لنا في "الأيام" بأنَّ أستاذه بدأ يُقرئه القرآن من أوله بعد الفشل في ذلك الامتحان، فحفظ القرآن حفظاً جيداً. وبما أنَّ الأستاذ كان يخاف من إسقاط راتبته فأتى إلى أبيه ويدَّعى ويقسم بالله أنَّ طه حسين لم ينس القرآن وإنما خجل وما أقرأه القرآن وهو مستعد للامتحان مرة أخرى. ولكن كأنَّه كان يفهم أبوه حقيقة الأمر ولذا يكذِّب الأستاذ. ثم يلحّ الأستاذ مرة أخرى بأنَّ طه حسين كان حافظًا القرآن ولكن قد فشل في الامتحان لأنه خجل ولم يستطع أن يقرأ القرآن بالحفظ وهكذا يقسم: أقسم بالله ثلاثاً ما نسيه ولا أقرأته، وإنما استمعت له القرآن، و تلا عليّ كالماء الجاري، لم يقف ولم يتردد لئن ظهر أنه لايحفظ القرآن لأحلقنَّ لحيتي هذه ...». كان طه

[1]- طه حسين، **الأيام**، ص٤٤.

[2]- محمد الأمين موسى أحمد، **الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم**، ص١٠٢.

حسين يسمع هذا الحوار وكان يعلم بأنَّ أباه محقٌ ولكنَّه أشفق على الأستاذ ولم ينطق بما يشين الأستاذ ولم يكشَف عن الحقيقة. الصمت في هذا الموقف لايدلّ على الانطوائية، بل هو علامة الإيجابية والفاعلية والصيانة. فصمت طه حسين في هذا الموقف صمت محمودٌ وجدير بالتنويه لأنَّه وإن كان طفلًا صغيرًا ولكنَّه خالف هواه وراض نفسه على الصبر والصمت وهكذا كان سببًا في تأليف القلوب وزرع الطمأنينة في الأنفس ودفع البغضاء والقلق ولذا يكون صمته علامة على تخلُّقه بالأخلاق الحسنة وإشفاقه على الآخرين. فدلالة الصمت في هذا الموقف «هي ثراء للفكر وتربية وإنماء للقاريء، من خلالها يتعرف الإنسان على قيم الحياة، ويسبر أعماقها. و"الأيام" قصة إنسان، صورة حية نابضة بالقوة لردّ فعل هذا الإنسان أمام المجتمع والبيئة»[1].

٢. سكوت طه حسين وأداء الفرائض

وصف طه حسين تصرفات أخيه حين احتضاره، تصرفاتٍ مزَّقت قلبه تمزيقًا. ويصف إحساسه تجاه هذه المصيبة قائلًا: «وصبيُّنا منزوٍ في ناحية من هذه الحجرة، واجم كئيب دهش يمزّق الحزن قلبه تمزيقا» استخدم طه حسين لفظ «الواجم» بيانًا لصمته. والواجم هو الذي «أسكته الهمّ وعلته الكآبة وقيل: الواجم: العبوس المطرق من شدة الحزن»[2]. فهو وإن كان صامتًا ولكن خالج قلبه إحساسات فياضة من الحزن والتألم. كما قال نضال أبو عياش: «لايقتصر نقل الأفكار والمعاني على استخدام الكلمات المقروءة أو المنطوقة، وفي الحقيقة فإنَّنا غالباً ما ننقل رسائل غير لفظية، وتكون في الغالب من طابع المشاعر والأحاسيس والعواطف، بينما يكون الاتصال اللفظي في الغالب للتعبير عن الأفكار وتبادل المعارف»[3]. ويستطرد "طه حسين" في وصف أحساسه قائلًا: ينتزَع قلبه حينما يذكر شكاة أمه في موت أخيه. هذه المصيبة تؤثِّرُ على نفسية طه حسين ومن هذا المنطلق يعزم على أن يكافيَ أخاه بعض التقصيرات في أداء الفرائض لتخفيف آلام نفسه ومساعدة أخيه ويجعل ذلك عهدًا بينه وبين الله دون أن ينطق بهذا التصميم

---

[1]– كمال قلته، "**الأيام والاعترافات بين طه حسين وروسو**"، الجديد، ص٢٠.

[2]– محمد بن مكرم ابن منظور، **لسان العرب**، مادة وجم.

[3]– نضال أبوعياش، **الاتصال الإنساني من النظرية إلى التطبيق**، ص١١٩.

لأحدٍ. تُستنبَط من هذا الصمت معاني قيّمة نشير إلى أهمها: قلب طه حسين مملوء بالإحساس الصادق والإيجابية وهكذا صمته يدلّ على إخلاصه في حبّ الأخ وإخلاصه في العمل وكراهته عن العجب والرياء. فهو لايطلب بهذا العمل لاسُمعة ولا مدحًا. فبما أنَّ الإخلاص عزيز، وهو من أشد الشيء على النفس وعناية إلى أنَّ نية الأعمال أهم من نفسه، فقيام طفل صغير بهذا الصمت وبهذا التصميم القيِّم سمةٌ لعلوِّ شخصيته ونقاء ضميره. وحتى بعد مرور فترة من الزمن قلب طه حسين مليء بالإحساس الصادق والنقيّ ويهفو إلى أخيه الفقيد. وصداقته في هذا الحبّ وتألُّمه في هذه المصيبة بارز وجدير بالتنويه، فإنَّه حينما يتأهب لترك القرية والسفر إلى القاهرة للتحصيل فهو يرى نفسه جالساً القرفصاء منكس الرأس كئيباً محزوناً حتى يلفت هذا الحزن انتباه الآخرين. ويسمع أكبر إخوته ينهره في لطف قائلا له: «لا تنكس رأسك هكذا، ولاتأخذ هذا الوجه الحزين فتحزن أخاك. ويسمع أباه يشجّعه في لطف قائلاً: ماذا يحزنك؟ ألست رجلاً؟ ألست قادراً على أن تفارق أمك؟ أم أنت تريد أن تلعب! ألم يكفيك هذا اللعب الطويل؟! شهد الله ما كان الصبي حزيناً لأنَّه لن يلعب، وإنما كان يذكر هذا الذي ينام هنالك من وراء النيل (إشارة إلى مدفن أخيه). كان يذكره، وكان يذكر أنه كثيراً ما فكر في أنه سيكون معهما في القاهرة تلميذاً في مدرسة الطب. كان يذكر هذا كله فيحزن، ولكنه لم يقل شيئاً ولم يظهر حزنا وإنما تكلَّف الابتسام. ولو قد أرسل نفسه مع طبيعتها لبكى ولأبكى من حوله أباه وأخويه»[1].

٣. سكوت طه حسين رفقاً بالأبوين

نتطرَّق فيما يلي إلى دراسة الصمت فيما قالته زوجة طه حسين عن شخصية زوجه خطابًا بنته: «حتى إذا انقضت السنة وعاد إلى أبويه. وأقبلا عليه يسألانه كيف يأكل؟ وكيف يعيش؟ أخذ ينظم لهما الأكاذيب كما تعوَّد أن ينظم لك القصص. فيحدِّثهما بحياة كلها رغد ونعيم، وما كان يدفعه إلى هذا الكذب حبُّ الكذب، إنما كان يرفق بهذين الشيخين ويكره أن ينبئهما بما فيه من حرمان. وكان يرفق بأخيه الأزهري، ويكره أن يعلم أبواه أنه يستأثر دونه بقليل من اللبن»[2].

---

[1]- طه حسين، **الأيام**، ص١٣٦.

[2]- **المصدر نفسه**، ص١٤٦.

«إنَّ العبرة التربوية التي نخرج بها من كتاب "الأيام" تملأ نفوسنا بالأمل، إذ مهما يبلغ الظلام الفكري في ناحية من النواحي، فإنَّ الله قادرٌ على أن يضع فيها بضعة يسيرة من خميرة النهوض، حتى تنتعش هذه الناحية، ويتوفز كيانها بالنشاط، ولو كانت هذه الخميرة طفلاً صغيراً»[1]. وإن لم يكن طه حسين في هذا الموقف صامتًا عن الكلام ولكن هو صامت عن بيان الحقيقة. فهو يجيب على الأسئلة مطابقًا لمقتضى الحال. ويُفَضِّل فرح أبويه على معرفتهما الحقيقة فيخبرهما عن طيب عيشه وحسن حاله في القاهرة. وإن كان أخوه الأكبر قد حرمه من أكل اللبن واختصه بنفسه ولكن لايخبرهما عن أنانية أخيه الأكبر في القاهرة ولاينطق باختصاص أخيه نفسه بالشيء دون طه حسين. «فالحديث وسيلة التفاهم الأساسية بين الناس وهو مفتاح الشخصية وعنوانها والكاشف عنها، فإذا عرف الطفل أسلوب الحديث والحوار منذ الصغر فإنه سوف يكبر ويعرف كيف يُحدِّث الناس على الطريق المثلى والتي تحمل المضمون القيّم الراقي»[2]. وبناء على ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله عزّ وجلّ أحبّ الكذب في الصلاح وأبغض الصدق فى الفساد»[3]. فنستنتج أنَّ طه حسين ليس كاذبًا، بل هو مُصلحٌ وإنَّه يكره أن يؤديَ قوله إلى البغضاء والكراهية ولذا صَمَتَ عمّا يزعج أهله رفقاً بهم.

٤. سكوت طه حسين تجاه الإهانة

وفي موقف آخر يصف طه حسين صمته قبال خطاب الممتحنين غير المتوقع بقوله: «وقد أقبل اليوم المشهود، فأُنبيء الصبيُ بعد درس الفقه أنه سيذهب إلى الامتحان في حفظ القرآن توطئة لانتسابه إلى الأزهر. فلما أُنبِيء بأنه سيُمتَحن بعد ساعة خفق قلبه وجلاً، وسعى إلى مكان الامتحان في زاوية العميان خائفاً أشدّ الخوف مضطرب النفس أشدّ الاضطراب، فقد انتظر أن يفرغ الممتحنان من الطالب الذي كان أمامهما، وإذا هو يسمع أحدَ الممتحنين يدعوه بهذه الجملة التي وقعت من أذنه ومن قلبه أسوأ وقعٍ: «أقبل يا أعمى». ولولا أنَّ أخاه أخذ بذراعه فأنهضه في غير رفق وقاده إلى الممتحنين في غير كلام، لما

---

[1]– غومس غرسطة، ومؤنس حسين، "**كتاب الأيام والمكان في تاريخ النشر العربي**"، ص٢٤٦.

[2]– علي بن نايف الشحود، **في أصولِ التَّرْبِيَةِ الإسْلامِيَّةِ**، ص١٩٧.

[3]– محمد بن على ابن بابويه، **من لا يحضره الفقيه**، ص٢٢٥.

صدَّق أنَّ هذه الدعوة قد سيقت إليه؛ فقد كان تعوَّدَ من أهله كثيراً من الرفق به تجنباً لذكر هذه الآفة بمحضره»[1].

«ففي الأزهر لقي طه حسين ضروباً من هذه القسوة التي لا يمحى لها في أعماقه أثراً وعانى ألواناً من التوتر والقلق وأشجان الضرر»[2]. في الظاهر أنَّ طه حسين كان صامتًا تجاه هذا الخطاب ولكن لم يكن باطنه كذلك. وهو قد وَصَفَ لنا مشاعره وأحاسيسه تجاه هذه الإهانة وامتلاء قلبه حسرة وألمًا بها. فهو لايصدِّق أنَّه خوطب بهذا الخطاب المؤلم. وهو لايذكر أهلَه خاطبوه بهذا الخطاب، بل عاملوه بالحسنى وما ذكروه بعماه.

يقال لكل شيء إيقاع وحتى للصمت إيقاع. «فالعلاقة قد لا تأتي من خلال الكلام، بل من خلال نظم أخرى، كألايماءه أو الحركة أو الصوت أو الصمت فإذا كان اللسان علامة فليست كل علامة لساناً»[3]. فصمت طه حسين في هذا الموقف يكون قابلًا للتأويل بناءًا على إهانة الممتحنين وما وصفه طه حسين من انفعال تجاه هذه الإهانة. نستنتج مما ذُكر أنَّ تعابير وجه طه حسين قد نطقت بما أحسَّ به من ألم وسخط وإن لم ينطق به لسانه. كأنَّه قد صرخ في هذا الموقف بصمته واستنفى هذا الخطاب ومارآه لائقًا بكرامته. كما ذكرنا آنفًا، بلاغة الصمت ناشيء عن قدرة من يصمت وقدرة من يدرك هذا الصمت. فبتأمُّلٍ في لغة جسد طه حسين تكشف المعاني المتعلقة به ويبيَّن ما خالج قلبه من السأم؛ لأنَّ صمته يمثِّل الوجه الثاني للملفوظ المقدَّر وراءه. وجديرٌ بالذكر أيضًا أنَّ صمت طه حسين في هذا الموقف لا يكون ناجمًا عن العجز في البيان، بل إنَّه لا يرى مخاطبه جديرًا بالجواب ولذا تستنبَط من صمته كثيرًا من المعاني التي يعجز الكلام عن وصفها. فيكون الصمت في هذا الموقف أكثر دلالة على المعنى من الكلام ويعتبر ردًّا جميلًا على الإهانة.

---

[1]- طه حسين، **الأيام**، ص٢٧٨.

[2]- خالد، علي دريد، "**قراءات فلسفية وتربوية في فكر طه حسين**"، مجلة التربية والعلم، ص٢٤٢.

[3]- سافرة ناجي الميالي، **الصمت في نصوص اللامعقول**، ص١٤.

٥. سكوت طه حسين تجاه مرارة الوحدة

وهكذا يرسم لنا طه حسين مشقة غربته في القاهرة ومرارة عزلته ووحدته في الغرفة وصمته تجاه هذا العذاب المؤلم. حيثما أخوه الأكبر كان يتركه في الغرفة وحده لأن يحضر المسامرة وكان يثقل عليه أن يصطحب طه حسين — وهو محروم من نعمة البصر – إلى مكان المسامرة. نورد فيما يلي وصف طه حسين لهذه الذكرى المريرة. «كانت هذه الحياة شاقة على الصبي (طه حسين) وكانت وحدته في الغرفة بعد درس النحو قد ثقلت عليه حتى لم يكن يستطيع لها احتمالاً، وكان يودّ لو استطاع الحركة أكثر مما كان يتحرك والكلام أكثر مما كان يتكلم. ولكنَّ المشكلة، بلغت أقصاها ذات ليلة وانتهت إلى الجلّ بعد ذلك دون أن يقول الصبي لأخيه شيئا أو أن يقول له أخوه شيئا. دُعيت الجماعة ذات يوم إلى أن تسمر عند صديق لها سوريٍّ لايسكن الربعَ. وقبلت الجماعة دعوة الصديق، ومضى اليوم كما تعوَّدت الأيام أن تمضي. وذهبت الجماعة إلى درس الأستاذ الإمام ثم عادت منه بعد صلاة العشاء، ليتخفَّف كل واحد منها مما كان يحمل من محفظته وأوراقه. وهيَّأ الشيخُ الفتى (أخ طه حسين) أخاه الصبيَّ لنومه كما كان يفعل كل ليلة وانصرف عنه بعد أن أطفأ المصباح كما كان ينصرف كلّ ليلة. ولكنَّه لم يكد يبلغ الباب حتى كان الحزن قد غلب الصبيَ على نفسه فأجهش ببكاء كظمه ما استطاع، ولكنَّه وصل في أكبر الظن إلى أذن الفتى، فلم يغيّر رأيه ولم يصرفه عن سمره، وإنما أغلق الباب ومضى في وجهه. وأرضى الصبي حاجة نفسه إلى البكاء ثم عاد إليه اطمئنانه شيئاً فشيئاً، ومثَّل قصته التي كان يمثّلها في كل ليلة فلم يستسلم إلى النوم إلا بعد أن عاد أخوه»[١].

«للإشارات والحركات والأفعال دلالة عميقة في إيضاح المعاني وترسيخها في النفس»[٢] وهكذا، بلغة الجسد «تكتمل العملية التواصلية لما تؤديه من دور فاعل في الإفهام والإيضاح والإفصاح والمصداقية والتأثير»[٣]. فالصمت يتضمن الرسالة ويبوح بما يخالج القلب، ففي هذا الموقف وإن لم يتحدث طه حسين

---

[١]– طه حسين، **الأيام**، ص٢٨٣.

[٢]– عزالدين علي السيد، **الحديث النبوي من الوجهة البلاغية**، ص٧٠.

[٣]– عودة عبدالله، "**الاتصال الصامت وعمقه التأثيري في الآخرين في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية**"، مجلة المسلم المعاصر، ص٢٢.

عن رغبته في حضور المسامرة وابتئاسه الشديد من وحدته ولكن بصمته وكيفية تصرفاته قد أفصح عن تلك المعاني؛ فإن لم يستخدم طه حسين الكلام في هذا الموقف ولا شك أنَّ حاله الناطقة قد أفصحت عمّا في ضميره باستخدام الأدوات الإتصالية غير الكلامية كتعابير وجهه أو لغة جسده؛ لأنَّ الصمت هو ضرب من أشكال اللغة ومعناه قابل للفهم والتأويل. ومتى أشار الشيءُ إلى دلالة فقد أخبر عنه وإن كان صامتاً. والحقيقة أنَّ تصرفات الأخ الأكبر في صباح ذلك الليل يدلّنا إلى أنه أيضًا فهم المعاني المتعلقة بصمت طه حسين في البارحة. صمت طه حسين في هذا الموقف يدلّ على شخصيته المتعالية؛ لأنَّه قام بضبط نفسه وسعى أن يخفي شكايته احترامًا لأخيه الأكبر. لأنَّه فهم عبءَ التكاليف الملقاة على عاتق أخيه فلهذا يخجل عن إبراز مايتمناه. فهذا هو دلالة على علو شخصيته. والحقيقة أنَّ الصمت في هذا الموقف له دور هام في تحقق عملية الاتصال بين الأخوين، بل يكون الصمت أعمق دلالةً من كثرة كلام الذي يُضَيّع المعاني وينقُص التفاهم؛ لأنَّ دلالات الصمت تتأثر بقدرة من يصمت وقدرة فهم مخاطبه وهكذا تتأثر بالوقوف على المقتضى والمقام لأنَّ معاني الصمت تستنبَط بالعقل لا بالأذن. وقام طه حسين في هذا الموقف بجمع الرموز مستمدًا بعقله وزوَّد الرموز دلالاتها القابلة للتأويل وهكذا أوصل مكنونات ضميره إلى أخيه بالاتصال الصامت وقدَّم إلينا عدة مستويات لعقله وعاطفته. فنجد طه حسين في هذا الموقف أنطق ما يكون إذا لم ينطق وأكمل ما يكون تعبيرًا إذا لم يعَبِّر. فربَّما أنَّ الأخوين قد فهما من هذا الاتصال الصامت المعاني المختبئة الأخرى التي نحن عاجزون عن فهمها.

٦. سكوت طه حسين استحياءً

وفي موقف آخر قام طه حسين بتوصيف مشاعره وأحاسيسه تجاه الآنسة "مي" ووظَّف في هذ الموقف صمتاً قابلاً للتأويل. يقول طه في ذالك الموقف: «لم يرصَ الفتى عن شيء مما سمع إلا صوتًا واحدًا سمعه فاضطرب له اضطرابًا شديدًا وأرق له ليلته تلك. كان الصوت نحيلًا ضئيلًا، وكان عذبًا رائقًا وكان لايبلغ السمع حتى ينفذ منه في خفّة إلى القلب فيفعل به الأفاعيل. ولم يفهم الفتى من حديث ذلك الصوت العذب شيئًا، ولم يحاول أن يفهم من حديثه شيئاً. شغله الصوت عمّا كان يحمل من الحديث. وكان صوت الآنسة "ميّ" التي كانت تتحدّث إلى جمهور من الناس للمرة الأولى. ولم يستطع الفتى حين أصبح

من ليلته تلك أن يمتنع عن السعي إلى مدير الجريدة وقد جلس إليه فقال له وسمع منه. ثم مازال يدور بحديثه حتى انتهى إلى حفل مطران، وحتى انتهى من حفل مطران إلى ذكر تلك الفتاة التي تحدَّثت فيه، والتى لم يسمع الفتى عنها قبل يومه ذاك. وقد سأله مدير الجريدة عمّا قالت الفتاة فلم يُحسن عليه ردًّا، وإنما لَجَلَج في القول، وأثنى الأستاذ على الآنسة "ميّ" وأنبأ الفتى بأنَّه سيقدِّمه إليها في يوم قريب. وابتهج الفتى بهذا الوعد وإن لم يُعرب عن ابتهاجه، وظلَّ يرقب البرَّ به، ولكنَّ الأستاذ نسيه، واستحيا الفتى أن يذكرَهُ فحمل نفسه على المكروه، وما أكثر ما كان يحملها على المكروه، وأعرض عن ذكر "ميّ" واجتنب حديثَها إلى الأستاذ. ومضت أيام وشهور وظفر الفتى من الجامعة بدرجة الدكتوراه، وأعطى رسالته عن أبي العلاء إلى مدير الجريدة فقرأها ورضي عنها، ولكنه لم يردَّها إلى الفتى وإنما قال له إنما ستردّ إليك رسالتك بعد أيام؛ لأنَّ الآنسة "ميّ" قد طلبت أن تقرأها، وسمع صاحبنا ذكر "ميّ" فبدا عليه فيما يظهر شيء من وجوم. وكأنَّ الأستاذ لاحظ ذلك فذكر وعده القديم وقال للفتى في رفق: ألم أعدك بتقديمك إليها؟ قال الفتى: أكاد أذكر ذلك. قال الأستاذ: فألقني مساء الثلاثاء فسنزورها معاً»[1].

ففي هذا الموقف عبَّرَ طه حسين عن شوقه وحبِّه إلى الآنسة "مي" من خلال نظامٍ من لغة جسده وتعابير وجهه وهيئته المضطربة. ويتبيَّن لنا أنَّ الالتذاذ بعذوبة الكلام وفقدان التركيز في معناه واللجلجة في الردَّ على سؤال حول الآنسة كلّها يعبِّر عن حبّه تعبيرًا بالصمت لا باللسان. وحينما وَعَدَ الأستاذُ طه حسين بتعريفه إلى الآنسة "مي" سُرَّ كثيرًا ولكن لم يبزر هذا السرور والفرح وترقَّب انجاز هذا الوعد وبما أنَّ الأستاذ نسي وعده ومُرَّ على هذا النسيان مرورًا ولكن خجل طه حسين واستحيا من تذكيره بالعهد وأضرب عن تذكارها وهذا الاستحياء أيضًا يدلّ على عفَّة الحب وصداقته. فنجد أنِ السكوت هنا أوضح معنى من الكلام. وما يجدر بالذكر أنَّ، بلاغة الصمت لا تخلو من دلالة تتصل بوعى المتلقي من خلال التفسير والتبيُّن. ومن هذا المنطلق نرى أنَّ وعي الأستاذ لعب دورًا هامًا في تفسير واستجلاء المعاني الكامنة وراء صمت طه حسين؛ لأنَّه حينما خاطب الأستاذ طه حسين سائلًا عنه: ألم أعدك بتقديمك إليها؟ ردَّ طه حسين على هذا السؤال بتعثُّر اللسان وتراجعه. فإنَّ هذا التردد وعدم الطلاقة في الإجابة قد جعل تأثير الجواب على المخاطب أقوى وأدلّ مما يكون عليه بدونه. ومن خلال هذا الصمت يتبيَّن

[1]– طه حسين، **الأيام**، ص٤٣٢.

بعض سمات طه حسين الأخلاقية أيضًا فهو متخلِّق بصفة الحياء والرزانة، بما أنَّه حمل نفسه على المكروه وأضرب عن ذكر الآنسة "مي" إلى أن تفرَّسَ الاستاذُ هذا الحب من، بلاغة صمته.

٧. سكوت طه حسين احتفاظًا بسمعة الأخوان

قد عبّر لنا طه حسين في الموقف الآخر بصمته وبدمعه عن آلامه التي لايراها جديراً بالإفصاح. قُرِأَ عليه ثلاث رسائل التي ملأت قلبه حزنًا وأضاف إلى كآبته كآبة. أوجَعَ قلبه هذه المرة سلوك أخويه غير المتوقع والمزعج ومع ذلك لم يتحدَّث عمّا آلمه احتفاظًا بسمعة أخويه. قد وصف طه ذلك الموقف قائلاً: «وعودة الفتى إلى أروبا تتقرَّر ويغدو على الجامعة ذات يوم فيُقرَأ عليه كتابان، ثم يروح إلى منزله فيُقرأ عليه كتاب ثالث كان قد حمله البريد صباح ذلك اليوم. وتملأ هذه الكتب الثلاثة قلب صاحبنا غمًّا وهمًّا وبغضًا للحياة وضيقًا من الناس وتُلقي على نفسه ووجهه غشاءً صفيقًا من الكآبة ينكره الرفاق. ويُنكره علوي باشا رحمه الله حين يراه يركب القطار ويرى على وجهه هذا الغشاء الكئيب فيهمس في أذنه: مالي أراك محزونًا كئيباً. وقد كنت أقدِّرُ أن أراك اليوم أشدَّ ما تكون ابتهاجًا وإشراقًا ... ألا يَسُرُّك أن تعود إلى فرنسا؟ ولم يُجب الفتى ... ولكنَّ دمعتين تنحدران على خدَّيه. وإذا علوي باشا يضمّه إليه ويقبّل جبهته قبلة ملؤها الحنان والبرّ لم ينسها قطّ. ويمضى القطار وقد سكت البكاء عن الفتى. ولكنَّ هذه الكتب الثلاثة لم تسكت عنه، وإنما رافقته أثناء سفره كلّه ملحّة عليه بالعذاب، حتى لكانت جديرةً أن تبغِّضَ إليه نفسَه. كان أول هذه الكتب الثلاثة من علوي باشا إلى أكبر إخوة الفتى ذاك المطربش ينبئه فيه بأنَّ الظروف المالية للجامعة قد فرضت عليها أن تردّ بعثتها إلى مصر كارهة، وأنَّه حريص أشدّ الحرص على أن يتمّ أخوه درسه لأنَّه يتوسم فيه خيرًا ويكره أن يعود قبل أن يحقِّق أمله من السفر إلى فرنسا، ويقترح تمنحه للفتى ويتبرع هو بالنصف الآخر حتى يبلغ الفتى أربه ويعود قد ظفر بالدرجات الجامعية الفرنسية ويصبح أستاذا في الجامعة. كان هذا الكتاب جديرًا أن يملأ قلب الفتى سرورًا وبشرًا وشكرًا لذلك الرجل الكريم النبيل ولكن ردّ أخيه على هذا الكتاب محا من قلبه كلَّ السرور وكلَّ بشرٍ وإن لم يمحُ منه الشكر الدائم والاعتراف بالفضل والجميل لذلك الرجل الكريم ... كان ردّ أخيه بشعًا حقًّا كان يعتذر فيه عن الأسرة بأنها فقيرة لاتستطيع أن تستجيب لما تراد عليه. .. وهي تطلب إلى الباشا أن يستعين بالسلطان على

تعليم هذا البائس، فإن لم يجد إلى ذلك سبيلًا فليردّه إلى مصر وليستبق رعايته له وعطفه عليه. وكذلك رأى الفتى رجلا غريباً مستعدًا للقيام ببعض نفقته في أروبا، وأخاً قريباً كارهاً لبعض ما يطلب إليه من ذلك. والغريب أنه لم ينبأ عن أمر هذا التبرّع من علوي باشا أباه ولا أخاه الشيخ وإنما كتم القصة عن الأسرة كلّها وكان له عذره في هذا الكتمان. فقد كان أبوه يرسل إليه بين حين وحين جنيهات تبلغ العشرة مرة وتزيد عليها مرة أخرى ويكلّفه أن يرسلها إلى أخويه في أروبا معونة لهما على الحياة. فكان يتلقَّى هذه الجنيهات فإذا استقرَّت في يده لم يسهل عليه إرسالها إلى أروبا وإنما أنفقها في بعض شأنه هو. أما الكتاب الثالث فكان من أكبر إخوته ذاك يودِّعه ويتمنّى له النجح والتوفيق ويستردّ غطاء عينيه الذهبيّ لأنَّه كان شديد الحاجة إليه. وما أيسر ما ردَّ الفتى ذلك الغطاء الذهبي وعاد إلى غطائه ذاك الرخيص الحقير الذي لم يكن ثمنه يزيد على قرشين اثنين. ولكنَّ كتاب أخيه في أمر ذلك الغطاء قد أضاف إلى حزنه حزنًا، وإلى ألمه ألمًا، وعاد إلى فرنسا سعيدًا محبورًا، ولكنَّه مع ذلك كان مزوَّدًا بمقدار من الشقاء غير قليل. ولم ينسَ صاحبنا قط أنه أجلس في مكانه من القطار حين، بلغ روما وقد انتصف الليل، فلم يبرح مكانه ذلك إلى جانب النافذة إلا حين، بلغ القطار باريس بعد ثلاثين ساعة كاملة لم يتحرَّك، وإنَّما كان أشبه بمتاع قد ألقي في ذلك الموضع وانتظر حتى يبلغ القطار غايته لينقل إلى موضع آخر. لم يتحرك وكان أشبه شيء بالمتاع، ولكنَّه كان متاع مفكر. يفكر مرة فيما حفظ من قول أبي العلاء أنَّ العمى عورة، وقد فهمه الآن على وجهه وهو يرفع يده بين حين وحين ليتحقَّق من أنَّ ذلك الغطاء الرخيص الحقير مازال يستر عينيه اللتين كان يجب أن تُستَرا. ويفكر مرة أخرى في الفقر والغنى، وفي الذين لايعرفون كيف ينفقون ما يتاح لهم من المال والذين لايجدون ماينفقون وفي الذين تسمو هممهم إلى أكثر من إقامة الأود وستر الجسم وتغطية العينين المظلمتين إلى الاغتراب في طلب العلم ثم لايجدون أيسر ما يحتاجون إليه في ذلك. يبخل عليهم القادرون ويبخل عليهم الأقربون ويهمّ بالإحسان إليهم بعض الأخيار فيردون عن ذلك ردًّا»[1].

يقول محمد بني يونس: «كل إيماءة وحركة من أطرافك تشكل لغة بحد ذاتها، ويكفي أن تراقب شخصاً ما لتفهم من حركات رأسه وأصابعه ما يريد أن يقول، وتعرف من طريقة جلوسه وملامح وجهه حالته

[1]– طه حسين، **الأيام**، صص٥٦٥–٥٧٠.

النفسية»[1]. وفي هذا الموقف من صمت طه حسين قد فهم "علوي باشا" كآبة طه حسين لا من كلامه، بل من صمته ولغة جسده. «إذ إنَّ الوجه هو المرآة التي تعكس ما يختلج في النفس البشرية من أفكار وما يعتري الإنسان من عواطف، فعندما تتأمل في وجه إنسان فإنك تكتشف ما يفكر فيه»[2]. وحينما استفهم "علوي باشا" عمّا أحزن "طه حسين" لم يفصح عن السبب ولم ير هذا السؤال قابلًا لأن يجاب. والحقيقة أنَّ الصمت في هذا الموقف هو أكثر دلالة على المعنى وأكثر، بلاغة من الكلام. وهذا الصمت يوصل المعاني العديدة التي يعجز الكلام عن بيانها وأيضا هو سمة لعلو شخصية طه حسين ونضجه الفكري والعقلي. فأظهر طه حسين حزنه، بلغة غير لفظية ولم يستخدم جهاز الكلام هنا. لأنَّ مضض الذى بغَّض إليه حياته موجَّه إليه من جانب أخيه وهو لايصدِّق ما فعله أخوه وما كتمه عن طه حسين وعن الأسرة. لأنَّه يرى رجلًا غريبًا مستعدًا للقيام ببعض نفقته في أروبا، وأخًا قريبًا كارهًا لبعض ما يطلب إليه من ذلك. وهكذا يضيف إلى عجبه وإلى ألمه أنَّ أخاه كتم أمر هذا التبرع عنه وعن الأسرة كلها وحين نقرأ سبب هذا الكتمان يكشف شناعة فعل الأخ أكثر فأكثر لأنَّه كان يسرق الجنيهات التى كان أبوه يرسل إليه وهو ينفقها في بعض شأنه وخلافًا لتكليف الأب كان لايرسل الجنيهات إلى أخيه في أروبا. طه حسين أحسَّ بالخجل لهذه التصرفات غير اللائقة فلذا لايُعبّرُ عمَّا آلمه ولايصرّح به ولكن الاتصال الصامت قام بتبادل المعانى وبإبراز العواطف المكنونة، ومن هذا المنطلق نطقت عينه وأخبرت عن العواطف التى خالجت قلبه ويفهم علوى باشا بما في نفسه من الحزن والابتئاس ومع ذلك لم يفهم ما أحزن طه حسين بالضبط. وكان البكاء بين يدي علوى باشا هو الأداة التي نقلت المعنى. «لأنَّ البكاء والنشيج هما تعبيران عالميان على نحو واضح، وهما يعبِّران عن الأشكال المعتدلة أو الأكثر أزمات من الأسى أو الحزن أو الفجيعة»[3]. يرى طه حسين أنَّ الصمت في هذا المقتضى أنسب من الكلام ولغة جسده تعبّرُ عفويًا عن المعاني المتعلقة بهذا الصمت المؤلم؛ فالصمت في هذا الموقف يدلّ على عاطفة طه الوقّادة وحرصه على صيانة سمعة أخويه.

---

[1]- محمد محمود بني يونس، **سيكولوجيا الواقعية والانفعالات**، ص٣٤٠.

[2]- أسامة جميل عبد الغني، **لغة الجسد في القرآن الكريم**، ص٤٦.

[3]- جلين ويلسون، **سيكولوجية فنون الأداء**، ص١٦٥.

٨. سكوت طه حسين تغافلًا واحتمالًا

وفي موقف آخر وصف طه حسين صمته وصبره تجاه ردود الفعل البشعة حيث يقول: «كان يذكر دائمًا قول أبي العلاء في آخر كتاب من كتبه أنَّه رجل مستطيع بغيره، وكان يرى نفسه مستطيعاً بغيره دائماً، ويحتمل في سبيل ذلك من غيره هذا الذي يتيح له الاستطاعة ألواناً من المشقة وفنونًا من الأذى دون أن يُنكرَ منها شيئاً، فهو مكرَه على احتمالها إكراهًا، وهو مخيَّرٌ بين أن يقبل ما يكره من غيره من الذين كانوا يعينونه على ما يريد أو يرفضه فيُضطَرُّ إلى العجز المطلق اضطرارا، ويضيع حياته في باريس، بل حياته كلَّها في باريس أو غير باريس. وكيف السبيل له إلى أن يذهب ألى السوربون ليسمع الدروس فيها إذا لم تعنه على ذلك هذه السيدة التى لم يكن من معونتها بدٌّ، والتي كانت ترفق به أحيانا وتعنف به أحيانا أخرى وربما صحبته من البيت إلى الجامعة دون أن تلقي إليه كلمة أو يسمع لها صوتًا، وإنما كانت تعطيه ذراعها وتمضى معه صامتة كأنما كانت تجرّ متاعًا لاينطق ولايفكّر، حتى إذا، بلغت قاعة الدرس أجلسته إلى مائدة من موائدها، وانصرفت عنه إلى خارج القاعة فانتظرت حتى إذا فرغ الأستاذ من درسه أقبلت عليه فأقامته من مجلسه، ومضت به إلى بيته، حتى إذا انتهت به إلى غرفته أدخلته فيها وأغلقت من دونه الباب، وهي تقول له في صوت خاطف: إلى اللقاء في ساعة كذا من النهار»[١].

«وعلى الرَغم من أنَّ الكلام هو الأصل، إلا أنَّ هناك حالات يكون فيها الصمت أفضل، وذلك إذا كان الكلام مفضياً إلى شرٍ وفتنة. فالأصل أن يتكلَّم الإنسان في الخير، فإن لم يستطع فعليه بالصمت[٢]. وهذا ما يفهم من قوله تعالى: ﴿**فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً**﴾[٣].

وبما أنَّ طه حسين كان ضريرًا فهو كان مفتقرًا إلى الآخرين لما يريد أن يفعل وهو كان يصبر على أنواع من المشقات في هذا المجال. صمتُ طه حسين في هذا الموقف ليس صمتًا اتصاليًا، بل يعتبر مانعًا عن الإفصاح والإبانة بما خالج قلبه من الحزن والضيق. معنى الصمت في هذا الموقف غامض ويتضمن شيئًا من

---

[١]– طه حسين، **الأيام**، صص٥٧٧–٥٧٨.

[٢]– عودة عبدالله، **"الاتصال الصامت وعمقه التأثيري في الآخرين في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية"**، مجلة المسلم المعاصر، ص٢٥.

[٣]– النساء/٩.

السَخَط والانزجار. استخدم طه حسين الصمت حتى يُخفيَ ما في ضميره من الكراهة تجاه البشاعة والعنف والتحقير. فهو كان يجحد ويحتمل هذه المشقات ولايعبر عن اعتراضه بالكلام حتى لا يحرم من فعالياته. فهو الذي قام بإدارة انفعالاته بالصمت وفضَّل مشقات التعلمَّ على راحة مع الجهل فلذا يعدّ هذا الصمت أفضل ردٍّ على الإهانة.

كما قال "غرسطة": «إنَّ كتاب "الأيام" ليعتبر فصلاً رئيسياً في تاريخ التربية، والصور التي يرسمها للقارىء مرسلة على نحو رائع يبلغ أقصى ما يمكن أن يبلغه العمل الأدبي من الصدق: وهي أنَّه يجعل القراء جميعاً، مهما، بلغ بُعدهم عن الوسط الذي تمثله هذه الصور، وعن الناس الذين كتبت لهم، يتمثلون أنفسهم في صفحاته، ويحسون أنَّهم المعنيّون بما يقرأون من كلام)[1].

وعلى رغم من أنَّ رغبة الناس إلى الكلام أكثر من رغبتهم إلى الصمت ولكن قد تفرَّس طه حسين أنَّه لا طائل لاستخدام الكلام في هذا المجال فضبط نفسه وصان لسانه عن التعبير لأنَّ التعبير عن المكاره كان يجعل الظروف أسخف مما هي عليه ويولد التنافر والحقد. فهو صبر وتجنَّب عن الاحتجاج والشكاية حتى يرى نتيجة صمته وصبره. أطاق طه حسين أنواعًا من الهموم والعناءات وأبرز، بلاغته بصمته. فهو تسامح وتغافل عن سلوك الآخرين غير اللائق حتى لايحرم من تحصيل العلم في باريس. فهو كان يستاء من السيدة التي صحبته من البيت إلى الجامعة دون أن تتكلَّم ببنت شفة معه وكانت تجرّه كأنها تجر متاعًا لا إنسانًا. كان طه حسين يعاني من تصرفات كهذه دون أن يعبّر عن انزعاجه الداخلي. أجاد طه حسين في استخدام الصمت وتحلَّى بهذه الشيمة إذ لا يرى موضعًا للتكلم والتفاهم. وهكذا تبيَّن أهمية الصمت وإيجابياته في هذا الموقف. نستنبط مما قيل أنّ الصمت فنٌ لايحسنه كل انسان ولكن اتسع قلب طه حسين لتوظيف الصمت وتحمل مرارته في هذا الموقف. وهذا الصمت سمة لشخصية طه الرزينة وجديرٌ بالتقدير والاقتداء.

[1]- غومس غرسطة، ومؤنس حسين، "**كتاب الأيام والمكان في تاريخ النشر العربي**"، ص٢٤٥.

النتيجة

استعرضنا في هذه الدراسة مواقف صمت طه حسين في "الأيام" وقمنا باستجلاء معانيه وبيان دلالاته. وإنَّنا خاتمةً لهذه الدراسة وإجابةً عن الأسئلة التي طرحناها في المقدمة نسجّل أهم النتائج التي تم التوصل إليها:

١– وظيفة الصمت في الأيام تنقسم إلى قسمين متناقضين؛ إيصال المعنى وإخفائه وهذه هي، بلاغة طه حسين التى تساعده في تفعيل المعنى المناسب للصمت وتوظيفه في مقتضى الحال المناسب. فهو استخدم الصمت ولغة الجسد مِراراً للتعبير عن آماله وهكذا تحلَّى بشيمة الصمت وتحمَّل مرارته تَكراراً حتى لا يفوه بالشكاية عن آلامه.

٢– لصمت طه‌حسين تأثيرات شعورية وإيجابية في بناء العلاقات الوديّة بين أفراد العائلة والتخفيف من آلامهم ودفع البغضاء والكراهية. وهكذا الصمت كان علامة على علو شأن طه حسين ومناعته وإشفاقه على الآخرين واحترامه للأشخاص وترفعِّه عن الدنايا.

٣– أحياناً يعبِّر الصمت المقترن بدلالة الجسد وتعابير الوجه عن المعاني تعبيراً يعجز عنه الكلام و هكذا قد يعبِّر الصمت المقترن بدلالة الجسد وتعابير الوجه عن الأحاسيس والخلجات النفسية تعبيراً تعجز عنه اللغة اللفظية.

٤– هذه المقالة تجتلي وتُبيِّن أهمية "الصمت" ودوره في التعرُّف إلى شخصية الآخرين علاوة على أهمية كلامهم.

٥– يمكن التعرُّف إلى شخصية الآخرين على أساس صمتهم. والإنسان مسؤول عن صمته كما هو مسؤول عن كلامه؛ فهو يُؤخَذُ على صمته أو يُشاد به.

قائمة الْمصادر والمراجع

أ. الكتب:

١. ابن بابويه، محمد بن علي، **من لا يحضره الفقيه**، ٤جلد؛ ط٢، قم: دفتر انتشارات اسلامى، ١٩٩٢م.

٢. ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، (د.ت)، محقق: جمال الدين ميردامادي، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٩٣م.

٣. أبوعياش، نضال، **الاتصال الإنساني من النظرية إلى التطبيق**،(د.ط)، فلسطين: كلية فلسطين التقنية، ٢٠٠٥م.

٤. أوزياس، جان ماري، **البنيوية**،(د.ط)، ترجمة: ميخائيل فحول، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ١٩٧٢م.

٥. بني يونس، محمد محمود، **سيكولوجيا الواقعية والانفعالات**،(د.ط)، عمان: دار السيرة،٢٠٠٧م.

٦. حسين، طه، **الأيام**،(د.ط)، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٦م.

٧. الشحود، علي بن نايف، **في أصولِ التَّرْبِيَةِ الإسْلامِيَّةِ**؛(د.ط)، ماليزيا: بهانج- دار المعمور، ٢٠٠٩م.

٨. علي السيد، عزالدين، **الحديث النبوي من الوجهة البلاغية**،(د.ط)، القاهرة: دار الطباعة المحمدية،١٩٧١م.

٩. موسى أحمد، محمد الأمين، **الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم**،(د.ط)، إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، ٢٠٠٣م.

١٠. ويلسون، جلين؛ **سيكولوجية فنون الأداء**؛(د.ط)، تر: عبدالحميد، شاكر؛ الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٠م.

ب. الدوريات:

١. الحصناوي، سامي محبس، "**مفهوم الصمت في العرض المسرحي**"، نابو للبحوث والدراسات، جامعة بابل، العدد ٧-٨، ٢٠١٣م، صص ١-٢٢.

٢. خالد، علي دريد، "**قراءات فلسفية وتربوية في فكر طه حسين**"، مجلة التربية والعلم، جامعة موصل، المجلد٢٠، العدد ٣، ٢٠١٣م، صص٢٣١ – ٢٥٩.

٣. عبدالله، عودة، "**الاتصال الصامت وعمقه التأثيري في الآخرين في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية**"، مجلة المسلم المعاصر، العدد: ١١٢، ٢٠٠٤م، صص١٠٣ – ١٣٣.

٤. غرسطة غومس، ومؤنس، حسين، "**كتاب الأيام والمكان في تاريخ النشر العربي**"، المعهد المصري للدراسات الاسلامية مدريد، العدد ٢، ١٩٥٢م، صص٢٤٠ – ٢٥٢.

٥. قلته، كمال، "**الأيام والاعترافات بين طه حسين و روسو**"، الجديد، العدد ٧٧، صص٢٩-٣١.

٦. كمال خضر، عادل، "**التحليل النفسي للقول الشائع، السكوت علامة الرضا**"، نشرة الثقافة النفسية، العدد: ٢٠، وكالةكلية الآداب لشؤون خدمة المجتمع وتنمية البيئة _ جامعة بنها، (د.ت).

٧. الميالي ، سافرة ناجي، "**الصمت في نصوص اللامعقول**"، إطروحة الدكتوراه غير منشورة بغداد: جامعة بغداد، ٢٠٠٤م.

ج. المواقع الإلكترونية:

١. توانسة، محمد السيد جاسم، "**سافرة ناجي تبحث عن سرّ الصمت في الأدب المسرحي المعاصر: اللغات والمشاعر تكمنان في الصمت**"، جريدة الزمان اللندنية، منشورة في: www.touwensa.com، (٢٠١١م).

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

بلاغت سکوت در کتاب "الأیام"

روح الله نصیری*

چکیده

سکوتِ ارتباطی، از معناهای باطنی انسان‌ها پرده برمی‌دارد و عاطفه‌ای خاص یا اندیشه‌ای را به مخاطب انتقال می‌دهد. البته میزان بلاغت سکوت به قدرت بلاغی شخصی که سکوت اختیار کرده و مخاطب آن و همچنین به جملات قبل و بعد از آن بستگی دارد. از این رو سکوت و معناهای آن موضوعی است که ارزش بررسی و پژوهش دارد.

طه حسین زندگی نامه شخصی خود را در کتابی با نام «الأیام» (آن روزها) به رشته تحریر در آورده است. نابینایی طه بر درونگرایی و سکوت او تأثیر محسوسی داشته است. سکوت با معناهای گوناگون خود در جای جای حوادث این کتاب دیده می‌شود. با تأمل در معانی سکوت طه حسین می‌توان با جنبه‌های شخصیتی، عواطف و افکار او هر چه بیشتر آشنا شد.

در این مقاله با استفاده از روش توصیفی – تحلیلی کاربرد سکوت را در حوادث «الأیام» بررسی می‌کنیم تا جایگاه و اهمیت آن در انتقال معنا و برقراری ارتباط مشخص شود؛ چرا که سکوت گاهی بیانگر مطالبی است که کلام از انتقال آنها ناتوان است.

نتیجه مقاله حاضر این است که سکوت طه حسین برای انتقال معنا در جایگاه دوم – یعنی بعد از کلام - قرار ندارد بلکه نقش اصلی را برای انتقال صریح یا ضمنی معنا بر عهده دارد. همچنین سکوت طه اغلب بیانگر مناعت طبع و عزت نفس اوست. طه حسین گاهی با استفاده از زبانِ بدن – و نه کلام – منظور خود را منتقل می‌کند و گاهی با سکوت، درد خود را پنهان می‌کند. گاهی سکوت افراد، یکی از راههای شناخت آنهاست؛ چرا که انسان همچنان که در قبال زبان خود مسؤول است در قبال سکوتش نیز مسؤولیت دارد.

کلیدواژه‌ها: "الأیام"، "ارتباط بی‌کلام"، "معانی سکوت"، "طه حسین".

* - استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه اصفهان. (roohallah62@yahoo.com)

تاریخ دریافت: ۱۳۹۵/۱۲/۱۱هش= ۲۰۱۷/۰۳/۰۱م تاریخ پذیرش: ۱۳۹۶/۰۵/۲۲ هش= ۲۰۱۷/۰۸/۱۳م

The Eloquence of Silence in Taha Hussein's Al-Ayyam (The Days)

Rouh Allah Nasieri, Assistant Professor, Isfahan University, Iran.

Abstract

Communicative silence may reveal people inner meanings and transfer specific emotions or thoughts to the audience. However, the degree of the eloquence of silence depends on the power of eloquence which silence has chosen to bestow, its audience, and the sentences used before and after it. Therefore, it seems silence and its meanings are issues worth investigating. Taha Hussein has written his autobiography in a book entitled Al-Ayyam or the Days. His blindness has had a considerable effect on his introspection and silence. Silence can be observed with different meanings everywhere in this book. By thinking about the meanings of Taha Hussein silence, one can understand dimensions of his personality, emotions, and thoughts. In the present study, which uses a descriptive-analytical method, the application of silence in events occurring in Al-Ayyam (the Days) is investigated in order that its role in communicating meaning is revealed, as silence sometimes indicates issues which verbal signs are unable to convey. The results of the study indicate that Taha Hussein silence is not of secondary importance, after the verbal signs, in conveying meaning; in fact, it has the main role in transferring explicit and implicit meanings. In addition, his silence indicates his self-respect and self-esteem. Taha Hussein sometimes, using body language, expresses intended meanings and sometimes in silence, hides his pain. Sometimes, one way to know people is their silence because both language and silence are rooted in human intentionality.

Keywords: *Al-Ayyam* (the Days), non-verbal communication, silence meanings, Taha Hussein.